

تاريخ القبول: 2025/02/25

تاريخ الإرسال: 2023/06/19

تاريخ النشر: 2025/11/30

تمظهرات الدراسة البينية في تراثنا النقدي

Appearances of interdisciplinary studies in our critical heritage

منصف سعدون¹، بلقاسم ذواوي²¹mounsef.saadoune@univ-bba.dz، جامعة برج بوعريريج (الجزائر)،²belkacem.daoudi@univ-bba.dz، جامعة برج بوعريريج (الجزائر)،

الملخص:

موضوع هذه الدراسة هو "تمظهرات الدراسة البينية في تراثنا النقدي" وهو عبارة عن دراسة وصفية تحليلية تهدف إلى إبراز أهمية التداخل المعرفي الحاصل في النقد العربي القديم، ولا بد هنا من الإشارة إلى أن التداخل المعرفي -كمظهر من مظاهر الدراسة البينية- ساعد على ارتفاع الحس النقدي عند العرب، وتولد بذلك فكر نقدي ناضج تسمه الموضوعية والنظرة العلمية، نقد تداخلت فيه معارف مختلفة متنوعة كان أبرزها: الأثر الديني الذي تقف الذوق العربي وصفله وسار به إلى بر الأمان، إضافة إلى بعض العلوم التي كان لها الأثر البالغ في تطور النقد العربي القديم: علم اللغة، والفلسفة والمنطق الرياضي... وغيرها من الحقول المعرفية التي أثرت في الدرس النقدي وزودته بمادة علمية لا تتضب.

الكلمات المفتاحية: الدراسة البينية، التراث النقدي، علم اللغة، الفلسفة، المنطق الرياضي.

Abstract:

The subject of the current study is the "Appearances of interdisciplinary studie in our critical heritage". It is a descriptive and analytical study that aims to highlight the importance of the cognitive interference in the ancient Arabic criticism, must be mentioned (noted) here that cognitive overlap –as an appearance of appearances interdisciplinary studies- help to upgrade critical sense of the arabs, and born with that mature critical thinking characterized impartiality and the scientific view. Criticism in which defferent knowledge overlapped, the most prominent of which was: the religious impact, in addition to some sciences that had a great impact on the development of ancient arab criticism, linguistics, philosophy and mathematical logic and other field of knowledge that affected the critical lesson and provided it with inexhaustible scientific matrial.

Keywords: interdisciplinary studies, critical heritage, linguistics, philosophy, mathematical logic

المؤلف المرسل: منصف سعدون mounsef.saadoun@univ-bba.dz

مقدمة:

إن الغوص في كنه الدراسة البينية صار ضرورة ملحة في ظروف حكمتها النظرة التخصصية التي قيدت الرؤية النقدية وأكسبتها معيارية آسرة جاءت لتحرر النقد من هذه القيود وتنتجه به إلى ربط وجهات النظر العلمية وبلورتها في نظام يجمع مختلف التخصصات بهدف الوصول إلى تفسير موضوعي يميل إلى الشمولية، وهذا دأب الدراسة البينية القائمة على مبدأ التفاعل والتكامل بين مختلف المعارف.

وتراثنا النقدي يزخر برصيد هائل من ذخائر المعرفة التي لا تزال تمد الدرس النقدي بجذوة لا تتطفئ أنتجها فطاحلة النقد العربي من أمثال: الجاحظ وابن سلام الجمحي وعبد القاهر الجرجاني والقاضي الجرجاني وقدامة بن جعفر وابن قتيبة

وحازم القرطاجني... وغيرهم، ولا ينكر أحد أننا نلمس عنصر التفاعل بين المعارف وتمازجها -كملمح رئيس من ملامح الدراسة البينية- في بوتقة النقد العربي القديم، هذا التفاعل الذي خلق حركة نقدية ونتاجا ثريا متفردا، قوته المعارف التي اكتسبها العرب باحتكاكهم بالأمم الأخرى، فأدخلوا على النقد كثيرا من أفكار هذه الأمم وانتهجوا في ذلك طرقا مختلفة مزجوا فيها الأصالة بالمعاصرة والمعاصرة بالإبداع، واكتست نقودهم بحلة جديدة تجسدت فيها مظاهر الدراسة البينية كونها جمعت معارف مختلفة منها المستحدث ومنها المبتكر، كل هذا نتيجة للتطور الفكري الذي شهده العرب خاصة في العصر العباسي، وأخذ النقد العربي يتجه نحو العلمية في خلق تفكير نقدي إبداعي تتفاعل فيه مختلف العلوم.

ولا ندعي هذه الدراسة أن النقد العربي القديم كان يتجه نحو الانفتاح المطلق على المعارف الجديدة، إذ هذا الطرح يستحيل، كون النقد العربي حافظ على خصوصيته وتميزه، وستأخذ الدراسة بعين الاعتبار البحث في تمظهرات الدراسة البينية في تراثنا النقدي ومناقشة آراء النقاد وفق حاضرمهم التاريخي والمعرفة العلمية والفكرية التي سادت عصرهم، وستحاول أن تستشف الروافد المعرفية التي نهل منها النقاد في تراثنا النقدي.

ويطرح البحث الإشكالية التالية: ما مدى تأثير تراثنا النقدي بالحقول المعرفية

في ذلك العصر؟ وما هي أهم الروافد التي نهل منها النقاد العرب القدامى؟

1. الدراسات البينية وأهدافها:

تشكلت الدراسات البينية كمصطلح معاصر إثر ذلك الانغلاق الذي أنتجته الدراسات المتخصصة لما فيها من حصر للمعارف وتقييد للدارس، ورغم وصول الدراسات المتخصصة إلى نتائج علمية دقيقة في كثير من الأحيان إلا أنها هي الأخرى أبقت جوانب من المعرفة حبيسة الخصوصية، كونها تبتعد -كما ادعت

الدراسات المتخصصة- بنتائجها عن موضوع الدراسة، فظلت بعض النتائج التي قد تكون أكثر أهمية في الدراسات مدفونة في دهاليز مظلمة غابرة، هذه دعوة جاءت في وقت سيطرت فيه فوضى الدراسة التي خرجت في كثير من الأحيان بالدرس عن حقيقته المرجوة، وقد شوه بعض الدارسين دراساتهم بما أدخلوا عليها من معارف لا صلة لها بالنتائج المتوخاة، فسادت فكرة التداخل بين المعارف ولسوء استغلال العلوم الأخرى في بعض الدراسات دعا أهل العلم إلى تقنين ووضع قواعد معيارية تضبط كل دراسة فصارت العلوم على اختلافها واضحة المنهج.

أما الدراسات البينية فهي "نوع من التخصصات الناتجة عن حدوث تفاعل بين تخصص أو أكثر مرتبطين أو غير مرتبطين، أو إنها العلوم والدراسات التي تبحث في إدراك العلاقات بين فروع العلم والمعرفة على أساس مبدأ وحدة العلوم وتكاملها للوصول إلى مفاهيم مشتركة بين مختلف العلوم والتخصصات"¹، وبهذا المفهوم تلح الدراسات البينية على ضرورة التفاعل بين العلوم والدراسات لأنها في الأخير تصل إلى مجموعة من المفاهيم المشتركة بين مختلف التخصصات والعلوم، وفي هذا دعوة صارخة إلى ضرورة تمازج الحقول المعرفية التي تتجسد في الدراسات البينية كونها "دراسة مرجعها حقلان معرفيان فأكثر، وهي دراسة تجيب عن أسئلة وعن مشاكل يعسر على نظام معرفي واحد حلها"²، ويتضح أنه لإيجاد حلول لمختلف المشاكل والإجابة عن الأسئلة التي يصعب حلها، يجب أن يكون هناك تفاعل بين العلوم والحقول المعرفية للإحاطة بجذور وفروع المشكلة التي تحتاج لعلوم وتخصصات مختلفة في ظل عجز النظام أو المجال الواحد على حلها.

وقد رسمت الدراسات البينية طريقها فحددت أهدافها التي تعمل على تحقيقها في كل دراسة لتعزز كفاءتها وتحسن استغلال مواردها بما ينسجم والمنظور العلمي، ويمكن حصر أهدافها فيما يلي³:

- دمج المعرفة: وتعني ربط وتكامل المدارس الفكرية والمهنية والتقنية للوصول إلى مخرجات ذات جودة عالية منبثقة على العلوم الإنسانية والطبيعية.
- الإبداع في طرق التفكير: يعني تطوير القدرة على عرض القضايا ومزج المعلومات من وجهات نظر متعددة لتحدي الافتراضات التي بنيت عليها وتعميق فهمها، مع الأخذ بعين الاعتبار استخدام أساليب البحث والتحقق من التخصصات المتنوعة في تحديد المشاكل والحلول للبحوث خارج نطاق النظام الواحد.
- تحقيق التكامل: ويعني ذلك إدراك ومواجهة الاختلافات بين التخصصات المختلفة للوصول إلى وحدة المعرفة المتكاملة والأكثر شمولاً من المسموح به من قبل رؤية أو تخصص واحد.
- إنتاج المعرفة: إن الحاجة إلى إجراء الدراسات البينية أصبحت أقوى من أي وقت مضى وذلك أن العديد من المشاكل المتزايدة التي تهم المجتمع لا يمكن أن تحل بشكل كاف عن طريق تخصص واحد معين، وإنما تتطلب دراسات بينية ذات رؤية واضحة تعتمد على الطرق الحديثة وعلى باحثين مؤهلين لإنتاج معارف جديدة.

2. الدراسات البينية وراثتنا النقدي:

إن الدراسات البينية كنظرية معرفية لم تكن وليدة العصر في حقيقتها لأن أغلب أسسها كانت سابقة للنظرية وهذا أمر طبيعي كون الأسس والقواعد غالباً ما تكون سابقة للنظرية، تستنبط من الدراسات الجديدة في تناولها ونتائجها وبما خدمت به موضوع الدراسة،

وفي مجال النقد الأدبي على مر العصور مر النقد بمراحل أغنت مادته وأثرتها بما يسير به نحو الدقة في إصدار الأحكام على اختلاف الأمم التي مارسته

وتمرست به وسعت لتجديده في سبيل الممارسة العلمية، ولا محالة أن نقدنا العربي على غرار النقد الغربي ساير هذا التطور ذلك أنه في كثير من الأحيان ما نتلمس في نقدنا القديم ملامح لنظرية نقدية حديثة ومعاصرة، وهذا الالتماس حقيقة أثبتتها الدراسات لما في تراثنا النقدي من ثروة زاخرة بالمعارف السابقة لعصرها، ومما لا شك فيه أن مغامرة الزج بتراثنا النقدي في موضوع الدراسات البيئية يحتاج إلى نفض الغبار عن ذلك الذخر الكامن في أمهات الكتب التي تمثل نتاجا ينضح بالفكر والمعرفة.

1.2 تأثير النقد العربي بالدين الإسلامي:

بمجيء الإسلام ارتقى الفكر والذوق العربي، فخطا النقد خطوة للأمام، وظهرت أحكام نقدية فيها شيء من التدقيق والتعليل، إذ اعتمد النقد حينها القيم الرفيعة للدين الإسلامي أداة في الحكم على العمل الأدبي، كما استطاعت أن تخلص النقد من تلك العصبية ومن تلك الأهواء التي كانت تجتاح الناقد فتأسره في دائرة الذات التي غذتها الروح القبلية.

فالنقد كالأدب في هذا العصر لا ينفصل عن المشروع الحضاري الإسلامي، يربط الأدب بالحياة، ويدعو إلى ضرب من الالتزام، يتعادل فيه المبدأ الأخلاقي والمبدأ الجمالي، انطلاقاً من القرآن نفسه، الذي جمع بين جمال المعنى وجمال اللفظ، ومن نظرة الرسول التي تصطفي من الشعر ما فيه حكمة وما فيه سحر البيان⁴.

وساهم القرآن بشكل ظاهر في خلق وعي نقدي مما أثر على النقد تأثيراً بدت معالمه في ضرورة الالتزام بالأفكار والاتجاهات التي تلائم روح الإسلام الدينية والأخلاقية، وليس غريباً أن كثيراً من الإعجاب انصرف إلى الشعر الخلفي، مما أكسب النقد معياراً جديداً يقوم على القيم الأخلاقية القائمة على مبادئ أرساها الدين

الجديد، فتغيرت بذلك النظرة إلى الشعر من نظرة تخضعه للجانب الفني والجمالي فقط -في العصر الجاهلي- إلى نظرة تخضع جانبه الفني الجمالي إلى الجانب الديني -في صدر الإسلام- وذلك "أن القرآن الكريم أثار في نفوس العرب تساؤلات مهمة حول ضرورة التمييز بين التجربة الجمالية المفتقرة إلى الإيمان والتجربة الإيمانية. وبين لهم أن الأساس في الشعر أنه يولد تجربة جمالية يفقد فيها الإنسان الرؤية الصحيحة فلا يعود يميز بين حق وباطل. وأن التجربة الإيمانية هي المنشودة عند الشاعر وعند غيره، وقد تجتمع التجريتان عند بعض الشعراء كما حدث عند شعراء رسول الله عليه الصلاة والسلام: حسان بن ثابت، كعب بن مالك، عبد الله بن رواحة"⁵، ويفهم من هذا أن الدين الجديد وجه النقد إلى جانب غاب في عصر سابق، عمد فيه إلى إرساء المقياس الأخلاقي الديني فأتسع أفق النقد بهذه الدعامة.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤثر الشعر الذي يلائم دعوته ويوافق مكارم الأخلاق ويبدو "الموقف الإيماني للشاعر هو المنشود قبل كل شيء عند رسول الله عليه الصلاة والسلام، كما هي الحال في القرآن. والميزان الذي يزن به المصطفى صلى الله عليه وسلم شعر الشعراء هو ميزان الإسلام والإيمان أيًا كان حظ الشاعر من الإبداع"⁶.

وقد اتجه نقد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المعاني وهذا أمر طبيعي فالموقف الإيماني مرتبط بالمضمون أكثر من الشكل، ويبدو هذا في تصحيحات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم للشعراء، ونذكر من تلك تصحيحه لكعب بن مالك حين سمع قوله:

مقاتلنا عن جذمنا كل فحمة مذربة فيها القوانس تلمع

فقال له: لا تقل عن جذمنا، ولكن قل: مقاتلنا عن ديننا⁷.

وإن كان هذا هو الأثر الأول للإسلام في النقد في صورته العامة إذ كان في بدايته توجهها عاما نحو المقاييس الخلقية، ولم يكن مؤسسا، أضف إلى توجه الناس إلى الدين الجديد والالتقاء به عما سواه من شؤون الحياة مما أضعف الشعر على حد تعبير الأصمعي. ولم يستمر هذا طويلا إذ عملت طبقة من الفقهاء على إحياء روح الشعر عند العرب بعدما كان العربي يتخرج من رواية الشعر وتدارسه وبهذا "شكل العلماء والفقهاء وأهل الرأي والنظر ما يشبه أن يكون طبقة ثقافية متميزة في هذا العصر، تستفتي في شؤون الدين والأدب والحياة، وتسمع كلمتها. ويلفت انتباه المتأمل في حياة المجتمع العربي آنذاك أن الخلفاء والولاة أنفسهم يرجعون إلى هذه الفئة"⁸، وقد أفاد النقد كثيرا من هذه الفئة، إذ ارتكز تفكيرهم النقدي في توجيه العامة إلى الاهتمام بالشعر في عصر ساد فيه التخوف والخشية من روايته وخاصة في حضرة صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام والتابعين. فكان لهذه الفئة دور هام في إزالة تلك الرهبة فهذا عبد الله بن عباس رضي الله عنه يدعو إلى تعلم الشعر في قوله: "الشعر علم العرب وديوانها فتعلموه، وعليكم بشعر الحجاز"⁹. فالشعر عندهم مصدر معرفي رئيس لا غنى عنه.

وإن كانت دعوتهم هذه إلى تدارس الشعر فهي من أجل تأكيد فكرة عدم تحريم الإسلام للشعر فموقفهم هذا أزال اللبس وأذكى روح الشعر في ذلك العصر، وتظهر صلة التفكير النقدي عند هؤلاء بالدين الإسلامي في استعانتهم في تفسير القرآن بالشعر الذي يمثل عندهم مادة لفهم غريب القرآن.

وفي عصر سادت فيه الروح العلمية وامتزجت فيه الثقافات والمعارف الوافدة وأعيد النظر في بحث مطول موضوعه (إعجاز القرآن) فأثر ذلك تأثيرا مباشرا وغير مباشر في تطوير النقد "أما الأثر المباشر فبفضل جهود العلماء الذين تعرضوا لأسلوب القرآن وبيان جوانبه البيانية، محاولين إثبات إعجازه البياني بمقارنته بالشعر

العربي، وخصائص الشعر ... والأثر غير المباشر جاء عن طريق أن القرآن رقق أنواق النقاد، بما جرى به أسلوبه من الصياغة الرائقة والصور الجميلة ذات التشبيهات والاستعارات الرائعة، مما جعل العلماء يستشهدون بصياغته وتشبيهاته على كل جيد، وصارت شواهد القرآن في مقدمة الشواهد الأدبية في كتب النقد والبلاغة¹⁰.

ويمكن أن نخلص من هذا أنه بمر الزمن أخذ العرب يكتسبون المعارف بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب العلم، ولا شك أنهم شغلوا به فأنتهت منه علوم كثيرة مرتبطة به، وبهذا "يعتبر القرآن من العوامل الرئيسية التي ساعدت على انطلاق الدراسات البلاغية وكانت الأبحاث التي أقيمت حوله خميرة صالحة لبروز مثل هذا التفكير"¹¹.

2.2 تأثير النقد العربي بعلوم اللغة:

حرص علماء اللغة الأوائل على درء فساد اللسان العربي من اللحن، فألفوا كتباً لحفظ مفردات اللغة، ووضعوا قواعد وظوابط يعرف بها الصواب من الخطأ في الكلام، جمعت كلها في معاجم وكتب علم النحو والصرف والبلاغة، وأدت هذه العلوم الناشئة إلى ظهور نوع جديد من النقد في الساحة النقدية توجه إلى تتبع الأخطاء اللغوية في الأشعار العربية وهذه هي "البداية الحقيقية للنقد اللغوي كفرع من فروع العلوم اللغوية كانت متأخرة إلى العصر الأموي، والذي نشطت فيه العلوم والمعارف، فوجدنا النقد موجهاً إلى المعاجم اللغوية والقراءات القرآنية واللهجات العربية، ونقد اللغويين والنحويين الشعراء والكتاب"¹²، وهذا ما ساعدهم على إبداء ملحوظات وأحكام نقدية كان لها الدور الهام في تطور الحركة النقدية وازدهارها.

لما نما علم النحو وتنوعت وجوه الرأي فيه، ومذاهبه بين أهل البصرة والكوفة جعل هذا علماء "يتتبعون كلام العرب ليستنبطوا منه قواعد النحو، أو وجوه

الاشتقاق، أو الأعاريض التي جاء الشعر عليها، وهذا الاستنباط يجبرهم بالضرورة إلى نقد الشعر لا من حيث عذوبته أو رفته أو جماله الفني، بل من حيث مخالفته للأصول التي هداهم استقراؤهم إليها في إعراب أو وزن، أو قافية. فأظهروا ما وقع فيه شعراء الجاهلية من الخطأ في الصياغة، وما وقع فيه الإسلاميون¹³.

وشاع هذا النوع في النقد في بيئة العراق ليكون مدرسة متفردة في نقدها "والنقد في هذه المدرسة اتجه اتجاه لغويا، فاتجه إلى اللفظ من جهته الإعرابية، ومن جهة الأوزان والقوافي، وتعمقوا كذلك فنقدوا الشعر من ناحية الصياغة والصناعة والثقافة"¹⁴.

ومن نقود هذه الفئة نذكر ما أورده صاحب الموشح أن عيسى بن عمر أخذ على النابغة الذبياني تورطه في قوله:

فبت كأي ساورتي ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع
حيث قال: صحته (ناقعا) بالنصب على الحال¹⁵.

وقد شهد النقد في العصر الأموي في نهايات القرن الأول الهجري وبدايات القرن الثاني صراعا احتدم بين أولئك اللغويين النقاد والشعراء، وقد حرص اللغويون على حفظ اللغة العربية من العجمة التي أصابت العربية من جراء الاختلاط "ذلك أنهم قاموا على جمع اللغة والشعر وتدوينهما. وكانوا بحكم اتصالهم بالشعر والأخبار، وروايتهم للخطب والأمثال، أقرب إلى تفهم النصوص تفهما لغويا. واستعانوا بهذه الخبرة اللغوية على نقد الشعر والخطب"¹⁶.

ويعد عبد القاهر الجرجاني من أبرز النقاد الذين اتجهوا إلى النحو ويبدو هذا جليا في نظرية النظم وذلك في قوله: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه (علم النحو)، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل بشيء منها"¹⁷.

هذا ابن طباطبا العلوي يتحدث عن سلامة اللغة عند الشاعر يقول: "وإذا كان الكلام الوارد على الفهم منظوما مصفى من كدر العي، مقوما من أود الخطأ واللحن سالما من جور التأليف، موزونا بميزان الصواب لفظا ومعنى وتركيبا اتسعت طريقه، ولطفت موالجه فقبله الفهم، وارتاح له، وأنس به"¹⁸.

يعد علم البلاغة ممثلا في البيان والبدیع من مجموعة العلوم التي حظي بها العرب، ودفعت النقد ليسير بخطى ثابتة نحو التطور بما يحمله من مبادئ وأصول أخرجت النقد العربي القديم من دائرة الذوقية التأثرية إلى رحاب الدقة العلمية، فأضفى على العمل النقدي صبغة علمية ذلك "أن من معاني البلاغة معرفة الخصائص التي تؤثر في الناس بطريق البيان، أو القول الجيد، وصحيفة بشر بن المعتمر في البلاغة تضع أسس هذا العلم، فللبلاغة إذا جانبان هما: جانباً التعليم والتأثير، وهي علم تعليمي، أما النقد فعلم وصفي يضع بين يدي الناقد الخبرة والوسائل التي يستطيع بها أن يميز الحسن من القبيح، وأن يحكم الحكم السليم، فالنقد إذا يتعرف، ويصف، ثم يحكم، بينما دور البلاغة تعليم وسائل البيان، أو القول الجيد"¹⁹، ومن هنا انقسم النقاد إلى فئتين فئة انتهجت الوصف والتحليل واعتمدت على الخبرة في إصدار الأحكام ومن هؤلاء محمد بن سلام وابن قتيبة والآمدي والقاضي الجرجاني، أما الفئة الثانية من النقاد فمزجت نقدها بالبلاغة ويظهر هذا عند الجاحظ وابن المعتز وقدامة بن جعفر والرماني وأبي هلال العسكري وابن رشيق وعبد القاهر الجرجاني وضياء الدين بن الأثير²⁰.

إن علاقة النقد العربي القديم بتلك العلوم علاقة فرضتها طبيعة العصر الميال إلى الدقة والوضوح. وإن كان النقد العربي قد جمع ما يحتاجه من مادة علمية مؤسسة ووظفها في سياقها المناسب، فإن ذلك قاده إلى جني ثمار معرفية جديدة لم يكن ليتوصل إليها لولا تلك المادة العلمية، وهذا يعطي انطبعا بأهمية الدراسات

البينية في نهضة النقد العربي القديم. إذ أذكت الحقول المعرفية روح الأدب والشعر والنقد "ومن الطبيعي أن يؤثر هذا النشاط العلمي في مجالي اللغة والنحو على الأدب والشعر والنقد، ومن ثم على بروز الكثير من الملاحظات البيانية والبلاغية وعمقها. فقد وجد الشعراء أنفسهم -لأول مرة- أمام عقول متخصصة في اللغة وقواعدها، تعرف أصولها وضوابطها، وتميز الكلام جيده من رديئه- تمييزاً دقيقاً"²¹.

إن نشأة مثل هذه العلوم عند العرب كان لها دور كبير في توجيه النقد الأدبي "وذلك لأنها أضافت مقاييس جديدة إلى مقاييسه في الشكل والوزن والأسلوب، وتلك المقاييس كانت تهدف إلى احتذاء العرب في سنن كلامها"²².

3.2 تأثير النقد العربي بالفلسفة اليونانية:

ومن الأمور التي أسهمت في تطور النقد الفلسفة والمنطق اليوناني "وأول ما ظهر من أثرهما كان عند المتكلمين الذين رأوا حاجتهم الملحة للفلسفة حتى يدفعوا المطاعن عن القرآن، وكانت دراسة الفلسفة والمنطق أول الأمر وسيلة لتمكين المعتزلة والمتكلمين عامة من الحجاج العقلي، واستطاع علماء المسلمين عن طريق هذه الفلسفة بصفة خاصة، والاطلاع على كتابي الخطابة والشعر لأرسطو أن يخرجوا بالنقد العربي من الجو العربي الخالص إلى جو آخر فيه كثير من التعليل والقياسات العقلية والمنطقية اليونانية"²³،

وبدا أثر الفلسفة جلياً عند نقاد القرن الرابع للهجري بوضوح، ونذكر منهم قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر)، والرماني في كتابه (نكت إعجاز القرآن)، وعند نقاد القرن الخامس الباقلائي في (إعجاز القرآن)، وعبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز)، وابن سنان الخفاجي في (سر الفصاحة)

إن بيئة المعتزلة استطاعت أن تتمثل في نقدها روح العصر مع المحافظة على روح العربية والتقاليد الموروثة، إذ أنها كانت توازن بين معايير البلاغة اليونانية

ومعاييرها العربية ولم تحاول أن تعلي الأولى على حساب الثانية، بل حاولت أن تفيد منها بدون أن تطغى على الفكر العربي وبيانه وبلاغته²⁴. وتظهر هذه الفكرة جلية عند بشر بن المعتمر في صحيفته التي جاءت فيها فكرة الملاءمة بين الكلام وأحوال السامعين النفسية، وهي فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال التي كانت شائعة عند اليونان وأحاديثهم عن البلاغة والنقد، وخلفه تلميذه الجاحظ الذي نادى بأن مدار الجمال في القرآن الكريم إنما يعود إلى نظمه الذي تتقطع الرقاب دون محاكاته، ويأخذ بفكرة فلسفية أخرى عن اليونان وهي اللغة الوسطى في محاولة منه أن يتلاءم مع حداثة العصر "وهو معنى ما نقول من اعتدال المعتزلة وأنهم كانوا يوازنون بين القديم والحديث وبين معايير النقد العربي واليوناني ملائمين بين ذلك كله نافذين إلى نقد عربي عباسي حديث"²⁵.

لم تقم دراساتهم على حل معضلة خلق القرآن الكريم، وإنما عكفوا على الدراسات الأدبية والبلاغية فقاربوا بين النص القرآني والنص الأدبي مظهرين الفوارق الأساسية بينهما خاصة فيما يتعلق بالنظم²⁶.

وفي القرن الرابع للهجرة كان للفلسفة الأرسطية حضور في دراسات نقاد ذلك

العصر إذ

"تداخلت عوامل كثيرة في دراسات القرن الرابع، كان أبرزها طابع المنطق والفلسفة اليونانية وكان لأرسطو مكانة بين مفكري هذا القرن، فانتفع بعض البيانيين ببحوثه في كتابي الخطابة والشعر وانتفع آخرون بكتب المنطق وقضاياه، وظهرت آثار هذا كله في فرعي دراسات النقد في القرن الرابع أعني (إعجاز القرآن) والبلاغة والبدیع"²⁷. ومن المؤكد أن هذا التفاعل مع الفلسفة الأرسطية كان له ثماره في تقدم النقد العربي حين أحسن بعض النقاد في الاستفادة منه وتوظيف بعض كنازحه من أجل تقديم فهم جديد للشعرية العربية.

أما البيئة النقدية التي بدا فيها التأثير بالفلسفة اليونانية تأثراً واضحاً تمثلت عند قدامة بن جعفر الذي صرح في مطلع كتابه (نقد الشعر) بأنه سيعنى بعلم جيد الشعر ورديئه، كما صرح أنه السباق إلى وضع هذا العلم في العربية، غير أن حقيقته في هذا الكتاب أنه أفاد من ترجمة كتاب (فن الشعر) لأرسطو عند متى بن يونس وهذا الأخير أساء ترجمة الكتاب، وبالتالي وقف عند تعريفه للشعر وقفة منطقية استمدها من المنطق الأرسطي.

ومن صور تأثير قدامة بن جعفر بالفلسفة اليونانية أنه أرجع فنون الشعر إلى المديح والهجاء، وفي هذا محاكاة لتقسيم أرسطو للشعر حين استندت رؤيته على أنه لا يخرج عن محاكاة الأفاضل أو محاكاة الأشرار.

ومن النظرات التي تطلعننا هي الأخرى على التأثير بالفلسفة الأرسطية نظرة ابن رشيق الذي فسر الشعر في قوله "بني الشعر على أربع، الرغبة والرغبة، والطرب والغضب، فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرغبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب والموجع"²⁸، ويبدو هذا التعريف للشعر عند ابن رشيق موازيا لتعريف أرسطو الذي قسم فيه الشعر إلى أربعة أنواع: الشعر الغنائي، والتراجيديا، والملحمة، والكوميديا

غير أن هنالك من النقاد من اتهم الفلسفة اليونانية والمنطق بأنها أخرجت النقد عن الروح العربية ورأت أنها ابتعدت عن لب النقد، وكانت مجموعة من النقاد المتعصبين للثقافة العربية قد عارضت الأخذ من الفلسفة اليونانية بشدة وهذا ما نجده عند بعض النقاد الذين أخذوا بطريقة العرب في قرض الشعر، وأمقتوا بذلك الشعر المغرق في الفلسفة. وفي الوقت نفسه "هناك من تأثر بأرسطو تأثيراً منهجياً، وأخذ الروح الفلسفية في دقة النظر والتحليل والخروج بالنتائج، واحتفظ لنفسه بالطابع العربي والذوق الأدبي، والروح الإسلامي، فجاءت دراساته للبيان مطبوعة بهذا كله،

ولم تكن مجافية للقرآن، والأدب، فساير هؤلاء القرآن والأدب وتجدد النقد بينهم واحتفظ بحيويته. من هذا الفريق أبو بكر الباقلاني -في النقد القرآني- القاضي الجرجاني والآمدي في نقد الشعر²⁹.

"وهناك فريق آخر تشرب روح أرسطو، وغلبت عليه الفلسفة، فتأثر بها تأثراً واضحاً، حتى أطل أرسطو وبرزت روح الفلسفة بين السطور، وبلغ الحد عند بعض هؤلاء درجة النقل، ولم يكن يسعف بعضهم الذوق، أو الألمان ببليغ كلام العرب لقلة محصولهم فيه، فكانت شواهدهم جافة ميتة، ودراساتهم للبيان سطحية، وكان على رأس هؤلاء قدامة بن جعفر"³⁰.

4.2 تأثير النقد العربي بالمنطق الرياضي:

وإذا ما ذهبنا إلى تجسيد المنطق في النقد القديم وجدناه عند ابن قتيبة الذي قسم الشعر إلى أضرب أربعة من حيث اللفظ والمعنى حيث قال "تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب، فضرب منه حسن لفظه وجاد معناه.. وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى.. وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه.. وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه"³¹.

ويبدو أن هذا التقسيم حسب محمد زغلول سلام يميل إلى المنطقية الرياضية إذا ما اعتبرنا اللفظ يرمز له بـ (أ) ويرمز بـ (ب) للمعنى والعلاقة بينهما من حيث الحسن والقبح يرمز لها بـ (+)، (-)، ولو فسرنا مقولة ابن قتيبة حسب هذا المنظور لوجدناها كالتالي:

1. ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه = (أ) + (ب)

2. ضرب منه حسن لفظه، فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى = (أ) - (ب)

3. وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه = (ب) - (أ)

4. وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه = - (ب) - (أ)

ويرى محمد زغول سلام أن هذا الاتجاه المنطقي سيطر على النقاد الذين جاؤوا بعد ابن قتيبة في رؤيتهم لقضية اللفظ والمعنى، فجل النقاد ساروا في هذا الاتجاه، وقسموا البحث في اللفظ والمعنى تقسيمات عدة لكنها لا تخرج في جوهرها عن تقسيم ابن قتيبة "فنجد ناقدا كقدامة بن جعفر تستهويه هذه الطريقة فيتمادى فيها ويغرى بالتجريد والتقرير، ويفرد أبوابا لعيوب اللفظ، وأخرى لمحاسنه، وكذلك بالنسبة للمعنى، ويفرض هذا الاتجاه نفسه على البحث البلاغي، فيجرب أبو هلال، وابن سينا، وابن الأثير، وأسامة بن منقذ، وابن أبي الأصبع، والسكاكي على النحو نفسه"³²، خاصة أنهم شغلوا باللفظ والمعنى من حيث محاسنها وعيوبها.

والشعر لدى قدامة بن جعفر: "كلام موزون مقفى يدل على معنى"³³، وعند تأملنا في هذا التعريف نجد أنه قائم على أساس منطقي يتبع فيه الاحتمالات في التقسيم وهو هنا ينزل من العام إلى الخاص باعتماده الأقسام الأربعة المذكورة في تعريفه (اللفظ، الوزن، القافية، المعنى) ومن هذه الأقسام استنبط احتمالات من المؤلفات (ائتلاف اللفظ مع المعنى، ائتلاف اللفظ مع الوزن، ائتلاف المعنى مع الوزن، ائتلاف المعنى مع القافية) فإذا أضيفت هذه الأربعة مركبات إلى الأربعة المفردات (اللفظ، الوزن، القافية، المعنى) صارت أجناس الشعر ثمانية، فكان عمله هذا في كتابه (نقد الشعر) أول محاولة عملية لتطبيق أصول المنطق على الشعر³⁴.

إن هذا التوجه المنطقي خرج بالدرس النقدي من دائرة الذوق الحي إلى النظرة

التجريدية التقريرية.

خاتمة:

إن النقد العربي القديم كانت له صلة وثيقة بمظاهر المعرفة المتنوعة والتي امتزجت لتشكل لونا نقديا جديدا، كما تشعب النقد بألوان المعرفة التي أثرت على مسارهم النقدي ووجهته في كثير من الأحيان، فاكتست نتاجاتهم طابعا من الدقة

والعلمية، وهذه الحقول المعرفية وجهت دفعة النقد وجهة أخرى فقد أمدته بزيادة معرفي ساهم في إيقاظ الفكر النقدي، الذي ظل يبرز تحت وطأة العواطف والأهواء وبعد أن كان شعاره الأوحى الذوق والتأثر، ومن منظور الدراسات البيئية يمكن عد ارتكاز نقدنا القديم على مجموعة المعارف والعلوم التي هطلت على العالم العربي سببا مباشرا في رقيه، كيف لا وقد زجت به في غمار البحث الذي تسليح فيه النقد بالمهارات التحليلية من أجل سبر أغوار النصوص وكشف خباياها.

وانتهت الدراسة إلى مجموعة من النتائج المتمثلة في:

- إن الموروث النقدي يؤسس للاستمرارية التاريخية من الماضي إلى الحاضر، وقراءته في ضوء مطالب عصرنا، وفي نفس الوقت لا نجعل منه منفصلا عن تاريخيته وسياقاته.
- النقد العربي القديم على الرغم من جنوحه إلى الطبيعة الذوقية التي يحكمها التأثر والعصبية، إلا أنه ارتبط بجوانب معرفية في عصور متقدمة مالت به إلى الروح العلمية في التحليل والتمحيص والمقارنة، وهو ما تجسد في المصنفات النقدية التي دونها فطاحلة النقد العربي.
- ضرورة قراءة التراث النقدي وتحريكه من حين لآخر لما فيه من رؤى نقدية ومعرفية سابقة للعصر، وما هذه التظاهرات التي كشف عنها البحث إلا دليلا على ثرائه وغناه.
- ساهمت المعارف المتنوعة (علم اللغة، الفلسفة، المنطق الرياضي) في تحقيق النقد العربي القديم قفزة نوعية دفعت به نحو التطور والتقدم.
- استفاد الناقد العربي القديم من تلك الحقول المعرفية أيما استفادة، ووظفها بما يخدم مادته، فأخضع النص الأدبي بما فيه من قضايا يثيرها إلى قوانين اجترحها وجعلها فيصلا لا مناص منه في العمل التقييمي.

المصادر والمراجع:

- 1 - محمد رضية آدم، حسام الدين عوض: فلسفة التغيير والتطوير في علوم المعلومات والمكتبات نماذج معيارية، المؤتمر الرابع والعشرين للاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات، المدينة المنورة، من 25-28 نوفمبر 2013، ص294.
- 2 - رمضان صالح بن الهادي: التفكير البيني أسسه النظرية وأثره في دراسة اللغة وآدابها، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سلسلة دراسات بينية، السعودية، 1436هـ، ص16.
- 3 - مركز الأبحاث الواعدة في البحوث الاجتماعية ودراسات المرأة: الدراسات البينية، وزارة التعليم، جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن، 2017، ص9، 10.
- 4 - وليد قصاب: النقد العربي القديم نصوص في الاتجاه الإسلامي والخلقي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط1، 2005، ص60.
- 5 - عيسى علي العكوب: التفكير النقدي عند العرب، دار الفكر، دمشق، 2000، ص48.
- 6 - نفسه، ص50.
- 7 - أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، نشرة دار الكتاب المصرية، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ص233.
- 8 - عيسى علي العكوب: التفكير النقدي عند العرب، ص92.
- 9 - ابن عبد ربه: العقد الفريد، تح أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، ج5، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1965، ص281.
- 10 - محمد زغلول سلام: تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1964، ص17.
- 11 - حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط3، 2010، ص44.
- 12 - رزايقة محمود: معيار النقد اللغوي قراءة في التراث النقدي العربي، مجلة فصل الخطاب، مج7، ع25، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، مارس 2019، ص94.
- 13 - طه أحمد إبراهيم: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع للهجري، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دت، ص54، 55.

- 14 - مصطفى عبد الرحمن إبراهيم: في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة، القاهرة، 1998، ص120.
- 15 - المرزباني: الموشح، تح محمد علي البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، ط1، 1965، ص42.
- 16 - محمد زغول سلام: تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، ص12.
- 17 - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تح محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 2000، ص81.
- 18 - ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تح عباس عبد الستار، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص20.
- 19 - محمد زغول سلام: تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، ص15.
- 20 - نفسه، ص15.
- 21 - مصطفى عبد الرحمن إبراهيم: في النقد الأدبي القديم عند العرب، ص104، 105.
- 22 - بدوي طبانة: دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، مكتبة أنجلو، مصر، 1974، ص125.
- 23 - محمد زغول سلام: تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، ص17، 18.
- 24 - شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، ج4، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط2، 1975، ص154.
- 25 - نفسه، ص155.
- 26 - إبراهيم صدقة: النص الأدبي في التراث النقدي والبلاغي، عالم الكتاب الحديث، أريد، 2011، ص62.
- 27 - محمد زغول سلام: أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، مكتبة الشباب، مصر، ط1، 1952، ص313.
- 28 - ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، ج1، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ط5، 1981، ص120.
- 29 - محمد زغول سلام: أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، ص313.
- 30 - نفسه، ص314.

³¹ - ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تح أحمد محمد شاكر، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص64-69.

³² - محمد زغلول سلام: تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، ص69.

³³ - قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تح محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985، ص64.

³⁴ - بدوي طبانة: قدامة بن جعفر والنقد الأدبي، مكتبة أنجلو المصرية، مصر، ط3، 1969، ص158-161.